



الامام علي بن ابي طالب وهل كان ضعيف السياسة ؟

بقلم : حنا نمر

قال رضي الله عنه : « اذا اقبلت الدنيا على احد اعارته محاسن غيره ، وان ادبرت عنه سلبته محاسن نفسه » . ومن الغريب ان المؤرخين يسرون مع الدنيا حيث تسير ، فاذا نجح احد الناس كان سياسياً ماهراً ، وداهية حازماً ، وان خاب كان ضعيف السياسة مضطرب الادارة . واذا ارضى هذا الكلام الدهر وقنع به الجمهور وارتاح اليه سواد المؤرخين فهو لا يرضي الحقيقة ولا يقنع به الماؤون المفكرون الذين يعملون عقولهم قبل ميولهم ، ويحكمون افهامهم قبل أهوائهم .

والناس في نظرهم الى الحوادث اربع فرق : فرقة ترى ان الفرد ينشيء الممالك بجده ودهائه ويخربها بلهوه وجهله ، وهؤلاء سواد القدماء من الباحثين والمؤرخين . وفرقة ثانية ترى ان للبيئة والزمان والامة تأثيرها ولكن الفرد اظهر واثره اقوى وهؤلاء من اتبع اساليب التفكير والنقد من القدماء ومن سار على خطواتهم من المعاصرين . وثالثة لا تعرف الفرد ولا تقيم لجهوده وزنا فيقول احدهم : من الخرافات الكثيرة الانتشار في هذا العالم اسناد صفات خاصة للانسان ملازمة له فيقال مثلاً فلان لطيف أو شرس أو حليم . وهؤلاء متطرفو المعاصرين . وفرقة رابعة لا تنسى الفرد ولكنها تتبعه الحوادث ، يظهر اذا طلبته البيئة ، واحتاجته الامة . وهؤلاء هم المعتدلون من باحثي عصرنا فهم لا ينكرون دهاء نابليون وعبقريه مصطفى كمال ولكنهم يتبعونها فرنسا وثورتها وتركيا وجهادها ، والاولى جدية بخلق نابليون ثان لولا ذاك والثاني خليف بايجاد اتاتورك آخر لولا هذا ، ولكن نابليون لا يمكن ان يظهر في سوريا أو في فرنسا نفسها ايام لويس الرابع عشر ، ومصطفى كمال لا يمكن ان يظهر في انكلترا أو في تركيا نفسها ايام سليمان القانوني .

وتاريخنا العربي يعود الى الفرقة الاولى ومن نحا نحوها كثر ، والى الثانية في شيء منه . ولذلك كان علي بن أبي طالب «ضعيف السياسة ، مضطرب الادارة» فهو قد خاب في سياسته . ولكننا لو بحثنا محيطه وبيئته ونفس الأمة العربية لرأينا انه لم يكن باقل ذكاء ودهاء ، بل قل ، وسياسة من الخلفاء زملائه ، غير ان الدنيا ادبرت عنه فظلمه التاريخ ، وامته خالفته فجار عليه المؤرخون .

الامة العربية كالامة اليونانية ، كلتاهما قدست الحرية الشخصية . عاشت الامة اليونانية جمهوريات متنازعة ، وطنها المدينة ، حتى جاء الاسكندر يوحدها ويملك بها العالم . وعاشت الامة العربية قبائل متفرقة وطنها القبيلة حتى جاء الاسلام يوحدها ويدوخ بها العالم .

كانت القبائل العربية متنازعة لا تجمعها وطنية . وكان عقلاء العرب يرون ما في هذه القبائل المتنازعة من قوة وفتوة ، وما في ملك الاكاسرة والقياصرة من ضعف وهرم ، وكان شمال الجزيرة قد افاق ليرى ان بلاده ضيقة على شعبها ، وليعلم ان الوثنية او اليهودية او المسيحية لا تصلح للخروج بالعرب من جزيرتهم .

وعند ذلك وقد تهيأت هذه الاسباب وغيرها من وطنية وسياسية واقتصادية ظهر ذلك النور الساطع في الجزيرة فضم شتات القبائل واخرجهم الى الدنيا ، فكانت الغزوات الاولى ؛ وكان انبعاث الامة العربية وتوحيدها .

وما ان قبض النبي (ص) حتى بويع الخليفة الاول (رض) وللنبوة مكانة سامية في النفوس ، وللدین اثر ضئيل في قلوب زعماء العرب ، فارتدت القبائل ، وادعى بعضهم النبوة ، وكادت العصبية القبلية تتغلب على الوحدة الجنسية لولا ان قضى على الاولى جهاد خليفة النبي وانصاره وحب الفتح وتجانس القوة وصلابة المعتقد ، أضف الى ذلك تفرق المرتدين وصعوبة اجتماعهم على غاية واحدة ، وقوي اثر الدين الصالح للخروج بالعرب من جزيرتهم ومن خالتهم الاقتصادية المتقلقلة ، وقوي اثر الجنسية الفتية الصالحة لقهر الروم والفرس . وكان من اثر هذا عطف المسلمين على العرب غير المسلمين وعطف هؤلاء عليهم وميلهم عن أبناء دينهم الى أبناء جنسهم .

وبويع الخليفة الثاني (رض) والفتوحات تتالي ، والشعب العربي فرح بانتصاره ثمل بغنائه ، بكسبه الفتح قوة والانتصار وحدة يدوخ بها ملك الاكاسرة والقياصرة ويقضي على الاول منها فيصبح عمر بن الخطاب (رض) من أحسن الناس سيرة وعدلا واستقامة ، وعلى جانب عظيم من السطوة والاهابة قبض على الخلافة بيد من حديد ، يد مستبد عادل .

ولكن ما أن انتهت تلك الفتوحات وتقدمت القبائل العربية لاقتسام الغنيمة من مال وملك وسيادة حتى هزتها الحرية الشخصية التي الفتها واثارتها العصبية القبلية التي تعودتها ، فانقسمت احزابا . وقتل الخليفة المستبد العادل مرهب الملوك ونخيف الاكاسرة والقياصرة ؛ قتله غلام حبشي لم ينصفه من مولاة ، فما أشد ما يقنع التاريخ بما يرى امامه وما أشد ما يقنع المفكرون بما يرويه لهم المؤرخون .

بويع الخليفة الثالث (رض) والناس بين دينهم وقبيلتهم ، فاکرم الصحابة والانتصار ارضاء الدين واکرم اقراره ارضاء للعصبية القبلية ؛ وما زال يتردد بين هذا وتلك ما ظلت الامة

مرتدة بينهما حتى اذا كانت الساعة قالت الامة كلمتها وقتلت خليفتها .
بويج الخليفة الرابع (رض) ومكانته من النبي (ص) معروفة ، وثقافته الدينية لا تحتاج دليلا ، فانتصر للدين واراد ان يعود بالعرب الى الوحدة الدينية ليستطيعوا بسط سلطانهم على الامم الاخرى ، ولكن الفرد لا يقاوم امة فغلبه تيار العصبية وكان في نظر البعض «ضعيف السياسة مضطرب الادارة» .

وبينا عرب الجزيرة والعراق يعودون الى حريتهم الشخصية كان عرب الشام بمن انضم اليهم من عرب غسان واليمن يالفون النظام الملكي ويخضعون للسلطان الاعلى «اتخذ معاوية خطة سياسية جديدة فجعل لعرب الشام نصيبا في ادارة البلاد واعتمد عليهم بتنظيم شمل اعراب البدو ، زد على ذلك ان في الجاهلية التي عاد اليها العرب قوة للامويين وقد كانوا السادة قبل الاسلام ، قال معاوية «وكان في اخيبت جند واشده خلافاً وكنت في اطوع جند واقله خلافاً ... وكنت احب الى قریش منه» .

والجند قسم تفرقه الحرية الشخصية ؛ ولذلك ولاسباب اجتماعية اخرى تغلب معاوية على علي ، وان شئت فقل تغلب عرب الشام مع من انضم اليهم من عرب غسان واليمن على عرب الجزيرة والعراق ، وان شئت فقل ايضا تغلبت الجنسية على الدين حتى هجا الاخطل المسيحي انصار النبي ومؤيدي دينه .

سارت الامة العربية في طريق الجنسية والحرية الشخصية منذ قتل الخليفة الثاني سيراً وثيداً ، ومنذ قتل الثالث سيراً سريعاً وقد اراد ابن الزبير ان يعيد السياسة الاسلامية فتركه جنده وخذله اعوانه وكان القضاء على الوحدة التي لم يقدر لها النجاح وكان سقوط العرب وضعفهم .
واسكت الامويون صوت الحرية الشخصية بزياد والحجاج ، ثم لم يحكم العرب بعد ذلك بل تغلب الفرس عليهم بانتصار العباسيين ولم ينفعهم قتل مسلم وابن البرامكة وابن سهل ، ثم حكم الفرس فالترك فالديلم وكانت النهاية التي اراد ان يتنهجها علي لامته فلم تطعه (ولا رأي لمن لا يطاع) .

وبعد ان اطلنا كثيرا ولكن بعد ان اوجزنا أكثر نعرض للامور التي يأخذها المؤرخون والادباء قديمهم وحديثهم ذريعة لنسبة (ضعف السياسة واضطراب الادارة) الى علي دون تخرج :

(١) لم يحمل السلاح ليدافع عن عثمان فجرا الشعب بذلك على قتل الخلفاء .
ولكن قتل الخلفاء ابتداء قبل الثورة على عثمان ، وكان علي يرى عثمان يتردد بين الدين والعصبية فيتالم «كنت رجلا من المهاجرين اكثر استعتابه واقل عتابه وكان طلحة والزبير اهون سيرهما فيه الرحيف وارفق حداثهما العنيف» . ولو ايد سياسة عثمان لأيد سياسة الانقسام وسار مع الامة الى هوتها .

(٢) قاوم تيار الامة فخاب في سياسته .
ولكن الامة كانت تسير الى التفكك والضعف (وقد سارت) فاراد ان يتشلها ويعيد اليها
الوحدة الدينية فغلبته . وليس في غلبة الامة فردا ضعيفا معنى الضعف في السياسة والاضطراب
في الادارة .

(٣) لم يقتص من قتلة عثمان .
ولو فعل لتفرق عنه اخوانه واصحابه واعوانه ولم يجد عند امية ناصرا . والخلاف بين
هاشم وامية يعود الى غير مقتل عثمان .

(٤) اسرع في عزله معاوية عندما تسلم الخلافة .
ولكن السرعة في هذا الامر دليل على حسن السياسة لا برهان على ضعف الارادة فقد
هدده معاوية قبل مقتل عثمان فهل يبايعه بعد ذلك ؟ وانما اراد باسراعه ان يقضي على حركة
معاوية في مهدها او ان يظهر عصيانه فيقاومه انصار الخلافة والشورى فيها ، ولولا اسراعه
لافسد عليه معاوية امره دون قتال ، بيد ان في القتال املا كبيرا بالنجاح .

(٥) رضي بالتحكيم فاخطأ :
سبحان الله ! وهل رضى علي بالتحكيم ؟ لقد ارغمه اعوانه على ذلك وهددوه بالقتل كما
قتلوا عثمان ، ولو تابع القتال لتفرق عنه اصحابه وانضموا الى معاوية قبل ان يصبحوا خوارج .
والغريب ان الذين طلبوا التحكيم نقموا على علي لانه ارغم على قبوله ، ولكن لا غرابة
في جند هو (اخبت جند) وفي جيش رايته العصيان (لا راي لمن لا يطاع) فاذا امرتكم بالمسير
اليهم في ايام الحر قلتهم حمارة القبط امهلنا حتى ينسلخ الحر ، واذا امرتكم بالمسير اليهم ضحى
في الشتاء قلتهم امهلنا حتى ينسلخ عنا هذا القر . . وافسدتم على رأيي بالعصيان والخذلان .
(٦) لم يستطع ان يؤلف بين قلوب انصاره .

ولكن الفرد لا يقاوم امة ، وأهل العراق لا يرضيهم «غير وال في كل يوم» ولو كان عمر في
أيام علي لاصابه ما اصابه (وقد اصابه) . ولو كان معاوية في العراق درن جند من الشام يتكء
عليه لما استطاع التأليف بين قلوب اثنين .

(٧) غلب على امره .
ولكن هذا الكلام لا يرضي العاقل المفكر ، فليس النصر دائما من نتائج الدهاء وليس
الانزمام ابدا من علائم الضعف ، واذا سار الجمهور مع الدهر فعل العلاء أن لا يتبعوا الدنيا
عن هوى ، وانما الدنيا تحدد «اذا قبلت الدنيا على احد اعارته محاسن غيره ، وأن ادبرت عنه
سلبته محاسن نفسه» .

* * *

وهناك نقاط أخرى أهملناها . وما مقالتنا هذه سوى نظرة عجل ، لان الموضوع واسع
عميق .